يكن في وسع المتكلمين توجيه براهينهم غير هذه الوجهة اذا اريد لآرائهم ان تحظى بفهم مشترك كمسائل عقلانية تتعين في اطار مبدئي شامل · لكن المبدأ يفقد عقلانيته في التخصيص ، ويمكن بالتالي ان يوفر للطرف الآخر مسوغا لمصادرات مماثلة ، لماذا يجوز نسخ آية دون اخرى ؟ ولماذا يجوز نسخ شريعة دون اخرى ؟ ان التخصيص يلغي الاساس البرهاني لهذا المبدأ ويجعله غير مفهوم ، فهو اذا صح كان ملزما لجميع الاطـــراف ، والا كان ضربا مـــن التعسف المنطقي · وما دام الجدال حاصلا في دائرة البرهان دون الايمان فـان الخصم يملك القدرة على الالزام بنتائجه مـا لـم يحسم الجدال برجـوع كـل طرف الى مسلماته على طريقة الحشوية واهل الحديث ·

نجد لدى الرجوع الى تاريخ الاسلام ، ان هذه التساؤلات قد طرحت فعـلا ولكن بطريقة اخرى · وبقدر ما يتعلق بالمدافعين عن النسخ من المتكلميـن السنة فان المسالة بدت خاضعة لروح الاستذهان السني الذي اتسم بأسلوب الجزم الرادع ، المستمد من الممارسة الطويلـة الامـد للسلطة الروحيـة والزمنيـة · ومحور اهل السنة هنا هو الحديث المنسوب الى النبي محمـد : « حلال محمـد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة » · وتبعا لذلك لم ير الفكر السني حاجة للسؤال عما اذا كان اليهود والمسيحيون هم المخاطبين وحدهم بنسخ الشرائع · وتشترك في هذا المنحى طوائف السنة المختلفة من ايمانييهم، أهل الحديث ، الى عقلانييهم ــ الاشاعرة ·

ونأتي الى الشيعة ·

ان هذه الفرقة كغيرها من الفرق الاسلامية ذات فروع عديدة ، وان كـانت تنقسم الى ثلاث طوائـف كبرى هـي الاماميـة ــ الاثنـي عشريـة ، الزيديـة والاسماعيلية · وهناك تفرعات صغيرة يمثلها افراد ، كأصحاب ابي الخطـاب والشلمغاني ، او مجموعات داخل الفرقة الواحـدة كما هـو الحال فـي الاسماعيلية · وللشيعة بوجه عام خصوصيتها ، التي تتأكد في افكار وممارسات يتشكل منها خط منفصل ، بدرجـات متفاوتـه ، عـن الخـط السلفي الـذي سار فيه اهل السنة · ويرجع ذلك الى جملة عوامل يمكن ان نرى في مقدمتها ان الشيعة وجدت خارج السلطة ونضجت في المعارضة قبل ان يتهيأ لبعض خطوطها الوصول الى السلطة في امكنة وازمنة معينة · وقد منحها ذلك قدرا من مرونـة التفكير يتناسب مع تحللها من ضوابط الوضع الرسمي · ومن المعلوم من الناحية الاخرى ان الشيعة تحركت في اكثر من بيئة وتشكلت بنيتها التنظيمية من عناصر تنتمي الى اصول اجتماعية وحضارية مختلفة ، مما عرضها بدوره لتأثيـرات خارجيه ساعدت على استضافتها معتقدات وممارسات لا تتطابق بالضرورة مـع الاصول الدينية للاسلام · وقد عني البحث المعاصر باستقصاء هذه التأثيـرات